Bruno Latour

*Enquête sur les modes d'existence: Une anthropologie des Modernes*

(Paris: La Découverte, 2012). 504 p. (Coll. «Hors collection Sciences Humaines»)

**عائدة بنكريم**[*]

**باحثة من تونس.**

برونو لاتور[١] فيلسوف وإثنوغرافي وعالم اجتماع وأنثروبولوجي فرنسي. تمحورت أبحاثه حول عالم الحداثة واشتغل على مظاهر انحرافاته وتناقضاته. درّس فلسفة العلوم، وأسّس سوسيولوجيا الممارسة العلمية بمفاهيم ومنهجيات، يزعم أنّها أكثر مواءمة للتحوّلات التي تشهدها مُجتمعات ما بعد الحداثة. اشتهر بنقده ثنائيات موضوعي/ذاتي، وثقافي/طبيعي، عبر استعماله مفهوم «العلم قيد الاشتغال» (Latour, 1987). وضع إلى جانب ميشال كالون (Michel Callon) وجان لاو (John Law) نظرية الفاعل ـ الشبكي (ANT)[٢]، ونحت معهما جهازاً مفاهيمياً، مقترحاً مُقاربة بنائية، تستمد أسسها من الأثنوميتودولوجيا لهارولد غرانفلك (Harold Garfinkel) وغابريال تارد (Gabriel Tarde). انتمى إلى مدرسة شيكاغو واشتهر داخل مجال «الدراسات العلمية».

اللافت في مسيرته العلمية، حرصه على أن تمسح أعماله ميادين واختصاصات معرفية مُختلفة: فلسفة العلوم، والتكنولوجيا، والدين، والقانون، والاقتصاد، والسياسة، والفنّ. وفي سبيل مُقاومة تيّار العولمة والنيو ـ ليبرالية، لا يجد لاتور حرجاً من طرح إشكاليات الحداثة والتحديث ونقد تمسّك الغرب بها، واجداً أن الغرب يُعاني أزمة «خلط قيم»، مؤكّداً أنّ الغربيين لم يكونوا أبداً حداثيين

(*) البريد الإلكتروني: benkraiemaida@gmail.com.

(١) برونو لاتور، عالم اجتماع وفيلسوف فرنسي ولد سنة ١٩٤٧ بـ Beaune. التحق بهيئة التدريس في جامعة العلوم السياسية سنة ٢٠٠٦، ليصبح مديراً مساعداً ومديراً علمياً مكلّفاً بالسياسات العلمية والتقييم منذ سنة ٢٠٠٧. بين سنتي ١٩٨٢ و٢٠٠٦ درّس بمركز علم الاجتماع والابتكار CEI، وحاضر كأستاذ زائر، قسم علم تاريخ العلوم في هارفرد. درّس بمعاهد المهندسين CNAM ثمّ l'Ecole des Mines. محاور اهتمامه: سوسيولوجيا العلوم، وفلسفة العلوم الاجتماعية، وأنثروبولوجيا الحداثة.

(٢) <http://www.bruno-latour.fr/taxonomy/term/32>.

بالمعنى الذي اعتقدوا أنّهم عليه. ويعتبر أنّ مُنجزات «الحداثة» أصبحت بالنسبة إلى الغرب أمراً مُقدّساً ومجالاً لا يُسمح بالاقتراب منه، تماماً مثل إنجازات الخميني بالنسبة إلى الثورة الإيرانية، ممّا أعاق قُدرة الغربيين على استنباط آليات تفكير جديدة لتجاوز حالة الشكّ والضبابية التي تترجح داخلها أغلب المجتمعات ما بعد الصناعية. ومن هذا المنطلق، أخضع تجارب المجتمعات الغربية للدراسة الإثنوغرافية، كما فعل علماء الأنثربولوجيا مع الشعوب والقبائل المحلية في أمريكا وأفريقيا وآسيا (ص ٢٥). وجعل من بين أهدافه رفع قسم من الستار الذي يُخفي أكثر المناسك قداسة داخل المجتمعات الحداثية: صناعة العلوم (Latour, 1982) وصناعة القانون (Latour, 2004).

لم يكتفِ لاتور خلال مسيرته العلمية بنقد الحداثيين وعرض تجاربهم وممارساتهم للدراسة الأنثروبولوجية، بل ذهب أكثر من ذلك مُحمّلاً إياهم مسؤولية المخاطر العالمية وقبح العالم؛ فهم، بحسب قوله، لم يستشرفوا الظواهر الإنسانية المُستقبلية، كمخاطر الطاقة والبيئة والاحتباس الحراري التي أصبحت تُهدّد الكون (Zarachowicz, 2015). وأضفوا على الموضوعية والعقلانية «قداسة» حوّلت العلم إلى مؤسّسة غير قابلة للنقد، وجعلت من نتائج العلماء «حقائق» غير قابلة للشكّ، على الرغم من أنّ الكثير من النتائج العلمية أصبحت منذ أكثر من ربع قرن محلّ نقاش، من النووي وغاز الشيست إلى تخصيب الجينات وتهجين الأبقار.

إنّ وجهة نظر لاتور، التي تماهت في آن مع طروحات «علماء اجتماع ما بعد الحداثة»، وتيّار «المضادين للعولمة»، تجد تعبيرها القوي في كتاباته حول البيئة والمناخ، باعتبارهما أهمّ الرهانات السياسية، وفي دعوته الملحّة إلى صناعة السياسي بالمراهنة على أشياء الطبيعة: الأرض، والماء، والبحر والحيوان والغذاء، مُعتبراً أنّ الاحتباس الحراري ليس «حقيقة» وإنّما خياراً سياسياً (Aeschimann, 2010).

سعى لاتور طوال ربع قرن من الكتابة والبحث إلى تحويل أسئلته حول قيم الحداثيين إلى مواضيع «سجالية». وفي جهده للمفاصلة عن التراث المرتوني (نسبة إلى ميرتون) في علم اجتماع العلوم، عمل على زعزعة ثوابت النظرية المرتونية خاصة تلك المتعلّقة بموضوعية العلوم وتأثير الأخلاق الطهرانية على مأسستها. وانتقد بشدّة الإلزامات المعيارية التي عيّنها مرتون، والتي يُشكّل التقاؤها ميزة خاصة بالخُلق العلمي: العمومية والمشاعية والنزاهة والشكّ المنظّم. كما اقترح تصوّراً مُختلفاً للعلاقات بين المتغيرات الاجتماعيات والمتغيرات المعرفية. وحاول، متأثراً بالتقليد الإثنو ـ ميثودولوجي وبالدراسات السوسيولوجية المستوحاة من «البرنامج القوي» الذي أسسه دافيد بلور، (هذا الأخير اقترح برنامجاً بحثياً بُني حول أربعة مبادئ: السببية والتناظر والحيادية والانعكاسية)، إبراز العلاقة بين العلوم والسياسة من جهة، والثقافة والطبيعة من جهة أخرى، ليبيّن كيف يبني العلماء مادياً، ومن خلال ممارستهم اليومية، السياق الذي تأخذ منه نتائج أبحاثهم معنى. ويكون بذلك أسس إلى جانب فولغار (S. Woolgar) وكارن كنور ـ سيتينا (Knorr-Cetina) ومايكل لنش تياراً

بحثياً، يتعيّن بالمصطلح العام «البنائية الاجتماعية» أو «علم الاجتماع البنائي للعلوم» (Latour and Woolgar, 1979).

هكذا، انتقل لاتور من «لم نكن أبداً حداثيين» (Latour, 1991) إلى هذا «البحث حول الحداثيين» ٢٠١٢ (نُشر ورقياً سنة ٢٠١٤)، مُفصحاً هذه المرّة عن مرجعية كاثوليكية بدت واضحة ومُهيكلة، مُتحمّلاً بذلك مسؤولية خيارات إيبيستيمولوجية وأخلاقية وسياسية وميتافيزيقية، كانت إلى هذا الحدّ أو ذاك سبباً في «عدم الاعتراف» الذي واجهته به «الجماعة العلمية» الفرنسية، فقد اعتبر بعضهم أنّ أفكار برينو لاتور تمثّل أحد مظاهر خيانة اليسار الراديكالي الفرنسي لمُفكّري عصر الأنوار، وبخاصة ديكارت، رمز العقلانية الفرنسية (Descamps, 2013). ويصرّح لاتور في أحد حواراته: «إلى حدود سنّ ٦٣ أتلقّى رسائل من باحثين شبّان وقع توبيخهم من طرف أساتذتهم المُشرفين على أطروحاتهم بسبب ذكر اسمي» (صحيفة **ليبيراسيون**، ٢٠١٠).

إذاً، بداية معركة لاتور مع الحداثيين كانت بكتابه المُستفز **لم نكن أبداً حداثيين**، الذي تُرجم إلى أكثر من عشرين لغة، إذ حاول إعطاء معنى مُحدّد لنعت «حداثي» مُستعملاً محكّاً هو العلاقة بين عالم الأشياء (الطبيعة) وعالم الإنسان (المجتمع) (ص ٢٠). في هذا العمل، انحرف لاتور بمنهجه التجريبي ليتخذ مُنعطفاً نظرياً إيبيستيمولوجياً بتوجّهات تفكيكية، مُستنداً إلى تقنيات المُقاربة الأنثروبولوجية. فإلى جانب عنوانه المُستفزّ، يقترح الكتاب الربط بين المُجتمع والعلوم باعتبارها المُشترك الحداثي: «الإنسانية في مواجهة الإله والطبيعة في مواجهة الثقافة». ينتقد لاتور استعمال العلم مؤشّراً رئيساً لقياس الترتيب داخل عالم الحداثة، ويرفض اعتبار أنّ كلّ عطب يُصيب مفهوم العلوم يمثّل تهديداً بإتلاف أجهزة الحداثة برمّتها، وأنّ كلّ خلط بين الوقائع والقيم هو انقطاع وتعثّر والتواء لسهم الزمن ليتحوّل إلى مكمن الأفاعي أي العودة إلى المُقدّس (ص ٢١). لذا فهو يبحث في إمكان وجود صيغ أخرى لنظام الترتيب لتعويض المعايير التي وقع إتلافها، والعالم بصدد غلق قوس الحداثة (ص ٢٢). ذاك هو المبحث الرئيس الذي عالجه لاتور منذ ربع قرن. ويواصل طرحه في هذا التحقيق الأنثروبولوجي والجهاز المُرقمن المصاحب له، مُعتقداً أنّ بإمكانه إتمام العنوان السلبي «لم نكن يوماً حداثيين» بإضفاء شيء من الإيجابية على صياغة العنوان (ص ٢٣). ولذا فهو يضيف إلى السؤال الرئيس أسئلة فرعية: إن لم نكن حداثيين، إذاً، ماذا حدث لنا؟ وماذا ورثنا؟ ومن نحن؟ وما هو مصيرنا؟

## أولاً: أنثربولوجيا الحداثيين

داخل هذا السياق المحلّي (قوس الحداثة الغربية المغلق) وبهذا العقل النقدي ـ البنائي، أنهى لاتور في شهر أيلول/سبتمبر ٢٠١٢، النسخة الإلكترونية لعمله المُثير للجدل «بحث في أشكال الوجود. أنثربولوجيا الحداثيين».

يأتي هذا العمل ليُتوّج ببيبليوغرافيا احتوت عشرين كتاباً وأكثر من مئة مقالة أكاديمية، تنقّل فيها لاتور طوال ربع قرن بين نقد الحداثة، وفلسفة العلوم،

وتقويض أسس سوسيولوجيا العلم لروبارت ميرتون (R. K. Merton)، وانتقاد البنيوية التكوينية ومقولتها المركزية: البنية البانية (Structure-structurante) في سوسيولوجيا بيار بورديو، ليصل إلى البحث في إشكاليات المناخ والسياسات البيئية ومخاطر تهجين النبات والحيوان، وعلاقة النيو ـ ليبرالية والعولمة بالاحتباس الحراري(٣).

قسم لاتور التحقيق ثلاثة أقسام. حدّد في فصول القسم **الأول** الموضوع (**الفصل الأول**) والمعطيات الضرورية لإنجاز التحقيق (**الفصل الثاني**). ثم خصص **الفصلين الثالث والرابع** لسؤال مفتاحي حول المعرفة الموضوعية «نريد أن نفهم بأي آلية، وبأي معدّات وضمن أي شروط مادية وتاريخية وأنثروبولوجية يُمكن إنتاج الموضوعية من دون اللّجوء إلى استحضار بعض الحتميات المُتعالية التي تجعل العلم ضدّ الرأي». كما خصّص **الفصلين الخامس والسادس** لمُعالجة سؤال العلاقة بين البناء والواقع، قبل أن يختم هذا القسم بالتوصّل إلى أنّ الحديث عن تعدّد أنماط الوجود يكون فقط بالاحتكام إلى الخيط الناظم للتجارب الإنسانية عبر البحث الأمبيريقي وليس غير الأمبيريقي، مُعلّلاً خياره بأنّ «ديكارت لمّا تساءل عن احتمال أن يكون الناس الذين يراهم في الشارع مجرّد «إنسان آلي» مرتدياً ملابس، كان عليه أن ينزل إلى الشارع ويتأكد بنفسه: «لماذا لا تقرص جلده بإصبعيك؟ أو لماذا لا تعتمد على شهادة خادمك؟ إنّك لن تستطيع وضع حدّ للشكّ من دون النزول من برجك العاجي...» (ص ٦٢)

بعد توضيح الموضوع، واختيار المُقاربة الأمبيريقية مُرشداً موثوقاً لنجاعة، وتحرير البحث من حرج إخضاع الحداثيين إلى التحقيق الأنثروبولوجي، يمرّ المؤلّف إلى القسم الثاني، حيث يستغل تعدّد أشكال الوجود للتخلّص من ثنائية موضوع/ذات (objet/sujet) أو خطأ/صواب (Vrai/Faux). وينطلق من مُعاينة ستّة أشكال وجود اعتمدها أساساً لأنثروبولوجيا مُقارنة من أجل فهم انتشار الأشكال الوجودية وتقلّب قيمها، ورصد الضربات المُضادة التي تلقّتها. وقد توصّل في نهاية هذا القسم إلى ترتيب هذه الأشكال الوجودية واقتراح نظام للتنسيق بينها، نظام سمح له باستكشاف ستّة أشكال وجود أخرى (**القسم الثالث**)، أكثر محلية (غربية)، وأكثر اقتراباً من تصنيفات العلوم الاجتماعية، ممّا سمح له بتذليل أكبر عوائق اعترضت التحقيق وهي تحديد مفهومي المُجتمع والاقتصاد.

الخاتمة العامة لخّصها سؤال: ما العمل؟ فجاءت بسيطة ومُختصرة بسبب ارتباطها بمنصّة البحث ووُجهتها التشاركية. خلال البحث يتحوّل الأنثروبولوجي إلى قائد بروتوكول (وسيط) ليقترح سلسلة «تمثّلات» تُلخّص مجموعة قيم تُعيد تعريف التاريخ المحلّي المخصوص للحداثيين، لكن ـ هذه المرّة ـ داخل مؤسّسات وباستعمال لغة جديدة. وهكذا، بحسب لاتور، تتحقّق الالتفاتة نحو «الآخر» من أجل التفاوض حول القيم المُشتركة التي تسمح بمواجهة اقتحام المُعَوْلم للكون.

(٣) <http://www.fnac.com/Bruno-Latour/ia7432>.

التقديم يُخبر عن تخطيط مُتوازن: مُقدّمة وستة عشر فصلاً موزّعة على أقسام ثلاثة وخاتمة مُختصرة، وفهرسة مُفصّلة لما يتضمّنه الكتاب. على هامش النصّ سلسلة من الجمل الإرشادية، إلى جانب وثائق ومُعطيات وبيبليوغرافيا وملاحق مُتوافرة على الشبكة العنكبوتية (موقع إلكتروني مخصوص)، وأسماء لأعلام ومرجعيات وشكر وامتنان لرفقاء درب، إلى جانب عدد كبير من الاستشهادات المدعومة بالمراجع، مع الصرامة في التدقيق المرجعي، حين يتعلق الأمر باستحضار فصول من التوراة.

الأكثر إثارة بالنسبة إلى القارئ، وبخاصة ذاك الذي لم يتعوّد الإبحار مع «لاتور»، هو التقنية التي استعملها لإنجاز هذا التحقيق، حيث وضع جهازاً Dispositif مُرقمناً، يُقدّم للقارئ بوصلة بعقارب دقيقة تُوجّه خطواته، وهو يتجوّل بين مُختلف فصول الكتاب (ص ١٠).

## ثانياً: جهاز التحقيق ومُختبره

وُضعت على رُكح مسرح «بحث في أشكال الوجود» خمسة كائنات: الراوي، والمُحقّقة الأنثروبولوجية (المُتخيّلة) التي يهدف لاتور، على لسانها، إلى إعادة رسم منظومة قيم المجتمعات الغربية، انطلاقاً من التحقيق الميداني، والحداثيين أو المُخبِرين الذين قدّمهم الراوي في شكل كائن جماعي، ومن ضمنهم الراوي والمحقّقة، والكائن الرابع أو الشخصية المركزية «Gaïa» (Latour, 2015) ـ إله ما قبل وجود الأرض» «Anthropocène. أمّا الكائن الخامس، فهو القارئ الذي أشركه المؤلّف في هذا التحقيق باعتماد أسلوب تقني مُبتكر عبر وضع منصّة بحثية (موقع إلكتروني)[٤]، مدعومة من المجلس الأوروبي للبحث العلمي «Conseil Européen de la Recherche»)، تسمح للقارئ، ليس فقط بالقراءة والاطلاع على الهوامش والمراجع والفهرسة والمفردات والوثائق والأدبيات الإضافية، ولكن أيضاً بالمشاركة في تمديد التحقيق وتجديده وإضافة وثائق ومصادر وشهادات جديدة. وكذلك ـ وهو الأكثر أهمية ـ باستغلال إمكان إعادة صوغ الأسئلة وتعديل وجهة المشروع. وبهذا، وبحسب قول لاتور، يكون «المُختبَر مفتوحاً على مصراعيه لرصد اكتشافات جديدة» (ص ٦)، ويفتح ورشات عمل مُتتالية تسمح للمبحوثين بإعادة تعريف أنفسهم بأنفسهم.

قد يدفع الجهاز المُعقّد القارئ إلى التساؤل حول الفائدة التي تحصل له حين يتحوّل إلى مُحقّق، وعن الهدف من إشراكه في إعادة تعريف القيم التي يتمسّك بها. تلك وضعية قد تكون غير مريحة بالنسبة إلى الباحث الأنتربولوجي، لأنّ مهمّته لا تشتمل على تفسير ما توصّل إليه من نتائج وإبلاغها إلى مجتمع البحث أو إقناع المبحوثين بتلك النتائج. والمفارقة الأهم تكمن في استعمال مقاربة أنثروبولوجية، ينجزها باحثون خياليون. غير أنّ هذا ليس غريباً عن لاتور، فقد سبق أن استعمل ـ رفقة فولغار ـ في بحث مشترك حول «حياة المختبر» (La Vie de laboratoire) (Latour and Woolgar, 1988) ملاحظاً خيالياً. ألا

---

(٤) <http://www.modesofexistence.org/>.

يُعبّر هذا عن التناقض بين خطاب يدعو إلى التوصيف الدقيق للممارسات من خلال التجربة الميدانية والملاحظة بالمشاركة، وبين استعمال جهاز بحثي مُتخيّل، وبخاصة في هذه المسرحة للتحقيق الأنثربولوجي؟

يرى لاتور أن «لا بأس من ضبابية التفاصيل من أجل رؤية واضحة لكامل المشهد» (ص ٤٧٦). ويضيف أننا لم نعد نحيا زمناً يسمح بالتفكير بهدوء، في نظام «كوسموسياسي» يُبنى على أنقاض «دستور الحداثة»، إذ هناك حاجة مُلحّة إلى وضع خطّة فعل لمواجهة التحوّلات الكونية (ص ١٢). لذا يكون من المُفيد تجهيز التحقيق ببروتوكول دبلوماسي كَوْني، قد يُساعد على منع تفكيك الـــ «Gaïa» أي الأرض، وكل ما عليها ومَن عليها. وفي ذلك، يرى لاتور أنه من الضروري تقسيم المهام، لذلك فهو يُفوّض آخرين من أجل الذهاب للتحقيق عن قرب (Latour, 2011). وبهذا التمشي، أراد لاتور أن يفتح فضاء للنقاش والتفاوض. فهل ينجح في نقل القارئ من وضع المُتلقّي إلى وضع الشريك؟

## ثالثاً: الشكل الوجودي للتحقيق: التمشّي التشاركي والذكاء الجماعي

حرر لاتور جهاز التحقيق من قلق الانضباط إلى مناهج وقواعد كتابة التقارير الأكاديمية، وكذا من ضرورة استعمال لغة سوسيولوجية مخصوصة، طالما عبّر عن انزعاجه من قيودها «علينا أن نقاوم فكرة أنّ المُفردات التي تُدجّج لغة الفاعلين يُمكن ترجمتها إلى عدد محدود من المفاهيم التي يحتويها قاموس علماء الاجتماع (...) حتى تتيسر لنا ممارسة علم اجتماع التجميع (La Sociologie de l'association)، يجب أن تكون لدينا شجاعة عدم تعويض صيغة غير معروفة بمُفردات مُجدولة» (Latour, 2006: 69).

من هذا المنطلق، رسم لاتور صورة مُتخيّلة لبطلة التحقيق: الباحثة في الأنثروبولوجيا، التي ساعدها «الحداثيون» في تحديد ميدان بحثها، ليتمحور شُغلها حول البحث في السمات الخصوصية لكلّ من «العلماء» و«رجال القانون» و«السياسيين»، واستكشاف طبيعة القيم التي تتدفّق بين الروابط والوصلات، وهي تتجوّل بين عوالم مبحوثيها وتتبّع آثار ممارساتهم وأقوالهم، تلتقط سلاسل «القيم» التي يمسكون بها وتمسك بهم: فـ «الموضوعية» مثلاً قيمة رئيسة بالنسبة إلى الممارسة العلمية، و«الثقة» قيمة أخرى بالنسبة إلى الممارسة الدينية، و«الحقيقة» قيمة مركزية بالنسبة إلى القانون (ص ٦٨).

في البداية، استعارت الباحثة مفهوم الخارطة الجغرافية لتحديد مجالات تحرّكها. وبدت لها الحدود مرسومة بدقّة، والمساحات ألوانها فاقعة، فلا مكان للخلط بين الدين والعلم أو القانون والسياسة. ولكن سريعاً ما شوّش كلامُ مبحوثيها هذا الوضوح، حين كشفوا عن ارتباك الحدود وبهتان الألوان. فالعلم غمرته السياسة، وهذه الأخيرة تستعمل مواد من القانون للإقناع والبرهنة، والقانون بات هو ذاته ملجأ الفارين من هيمنة التفسير الاقتصادي، وهكذا دواليك. على ذلك، تستنتج الباحثة ـ ومن دون عناء كبير ـ اللامعنى في مفهوم المجال. بحيث يتبين

لها أن خيار المجالات لم يكن صائباً، فتسأل: كيف التوصّل إلى علامات إرشادية تُبدّد الغموض؟ ماذا لو حالفها الحظّ واعترضها مفهوم «الشبكة» أو «الفاعل ـ الشبكي»؟ (ص ٤٢) لقد تجاوز لاتور مفهوم الشبكة باعتبارها فاعلاً، كما كان قدّمها في نظرية الفاعل ـ الشبكي (Latour, 2006: 205)، ليحوّلها في هذا التحقيق إلى شكل وجود من بين الأشكال الأخرى!))

ههنا، أخذ لاتور يُرصّف الأفكار الواحدة تلو الأخرى، مُعيداً صياغة خياراته القديمة: قدّم الشبكة، والفاعل ـ الشبكي والمُختبر لتحلّ محلّ الحقل أو المجال، وجعل التحقيق الميداني التقنية الفضلى لاستكشاف الممارسات والتمثلات الكامنة خلفها، مُعللاً ذلك بـ «أنّ مفهوم الحقل يفرض على الباحثة الوقوف في مكانها ومعاينة الجميع يتحرّك حولها بشكل غير مفهوم، بينما مفهوم الشبكة يجعلها تتحرّك بحرية أكبر، مما لدى أولئك الذين تتتبّع أفعالهم» (ص ٤٣). وهكذا يتدرّج لاتور في عرض مشروعه ممسكاً الخيط من أوّله مُتحكّماً في تسلسل الفصول وانسياب الأفكار، لتتسرّب بين الفقرات مفاهيم جديدة (Préposition-Double Clic) جاعلاً من جهازه الدبلوماسي الناطق باسم Porte parole أو الوسيط Médiateur الذي يعيد بواسطته تعريف النواة الصلبة لمشروعه، البنائية والنسبية المنسّبة.

## رابعاً: لغة مخصوصة ومفاهيم مُبتكرة

لإنجاز هذا العمل، اعتمد لاتور على نتائج البحوث الميدانية التي راكمها خلال تجربة معرفية تواصلت أكثر من ربع قرن. نقطة البداية أطروحة دكتوراه، درس فيها الدين انطلاقاً من التفاسير ١٩٧٣ ـ ١٩٧٥. ثمّ، وأثناء قيامه بالخدمة العسكرية بأبيدجان في سبعينيات القرن الماضي، بدأ يُفكّر في دراسة ما عاينه من مؤشّرات ظهور «جبهة تحديث» نيو ـ استعمارية نموذجية. وحتى يفهم قوّة الظاهرة وسرعة انتشارها، قرّر إنجاز دراسة مُقارنة لأماكن إنتاج الحقيقة أو ما يُتصوّر أنه كذلك. خلال مسيرته البحثية، أخضع الدين (Latour, 2002) والعلم والطبيعة (Latour, 1999) والتقنية والابتكار والقانون (Latour, 2004) والاقتصاد إلى الدراسة الإثنوغرافية (إثنوغرافيا غير خاضعة للقواعد، بحسب تعبيره)، ليصل إلى هذا التحقيق: أنتربولوجيا الحداثيين، «هذا العمل يُلخّص تحقيقاً أقوم بإنجازه بكلّ مثابرة منذ ربع قرن» (ص ٦). وبالفعل، يكتشف المطّلع على أعمال لاتور أنّ أغلب مواضيع فصول الكتاب أثيرت في كتاباته السابقة: صناعة الوقائع العلمية، وصناعة القانون، وهيمنة المعرفة العلمية على المعرفة الدينية، والمخاطر البيئية التي أنتجتها العولمة، والدعوة الملحة لحماية الـ «Gaïa» بوضع سياسات كونية لإدارة الطبيعة. ويأتي هذا التحقيق بحسب قوله، لإعادة صياغة الأسئلة ومواصلة البحث والتفاوض حولها، وتقديم صيغة أخرى لتعريف قيم الحداثيين، وفي مقدّمها «الموضوعية». ويثمّن لاتور هذا التحقيق لأنه بحسب رأيه، يسلّط الضوء على أشكال وجود أخرى لم يسمح لها السياق «الحداثي» بالبروز، كالدين والسياسة والقانون والفنّ، التي سحقتها عربة جلالة

العلوم، ولكن اليوم يُمكن نشر قيمها بصورة مُريحة.

بحسب لاتور، جميع أسئلة الأنثروبولوجيا التاريخية والمُقارنة تبدأ بالتحقيق المُعمّق في حداثة بصدد الانتهاء (Latour, 2004)، معتبراً أن هذه الأسئلة في حالة إعادة صياغة متواصلة، لأنها في ارتباط وثيق مع التطورات التي تشهدها المُجتمعات الحديثة، «منذ أكثر من ربع قرن، تتوسع السجالات العلمية والتكنولوجية وتنتشر كمّياً ونوعياً، لتشمل المناخ والبيئة» (ص ٢١). وقد جعلت منه تجربته الثرية خبيراً في ممارسة الميدان ودراسة الوقائع وتحليلها وهي تُبنى. كما مكّنته كتابة التقارير التوصيفية (Les Comptes rendus) من بناء لُغة معرفية مخصوصة (Métalangage) (ص ٣٣). وفي ذلك، فهم دقيق لمنطق اللغة واستدعاء للمعاني الدلالية وربط لها بالفصائل الشكلية (استعمال الحرف الكبير، أو الحرف المائل، أو وضع الكلمة بين مزدوجين...).

لقد أثرى لاتور الممارسة السوسيولوجية المعاصرة، وبخاصة سوسيولوجيا الممارسة العلمية، بإضافة مجموعة مفاهيم ومصطلحات إجرائية: الفاعل ـ الشبكي (l'acteur réseau)، والفعَلة (actants)، والعُلبة السوداء (Boite noir)، وحرّر اللغة من قيود «الأكاديمي» و«السوسيولوجي»، وطوّعها للغة المبحوثين ليُساهموا بلغتهم البسيطة في إعادة تعريف قيمهم وتحديد هوياتهم. كما وسّع، مع ميشال كالّون، ومادلان أكريش (Madeleine Akrich) استعمال أنموذج الترجمة الذي وضعه ميشال سار (Serres, 1974) وطبّقه داخل مجالات علمية مختلفة (العلوم والتقنية والسياسة...)، وذهب إلى إطلاق تسمية «سوسيولوجيا الترجمة» على «سوسيولوجيا العلوم» (Akrich, Callon et Latour, éds., 2006).

## خامساً: إعادة السوسيولوجيا أو باراديغم جديد أو تدرج في الاستبدال الانتقائي؟

ترسم الأعمال والمناقشات التي عرض لها لاتور في كتبه ومقالاته صورة عن تنوّع المباحث التي منها تبلور مشروعه. غير أنّ هذه الصورة تطرح في الآن نفسه عدداً من التساؤلات: أولاً من حيث النتائج: هل توصّل لاتور من خلال تقاريره حول تجارب الحداثيين إلى إعادة بناء «منظومة قيم» مُقاوِمة لـ «غرب حين يتكلّم عن نفسه، يكون ناقداً أو مُمجّداً» (ص ٤٠)؟ ثمّ من حيث المنهج: هل الإثنو ـ ميثودولوجيا هي بحدّ ذاتها المقاربة الأكثر مواءمة لعرض وتحليل ما يحدث داخل المجتمعات الحديثة؟ وأخيراً، من حيث طبيعة التفسير السوسيولوجي: هل يُمكن أن يقدّم التوصيف نفسه باعتباره تفسيراً؟ أي ألا يقودنا نقد السوسيولوجيا التقليدية إلى الذهاب نحو الإفراط في التوصيف؟

لقد كان لاتور رائداً في تأسيس «أنثروبولوجيا العلوم»، وفي «إثنوغرافيا المختبرات» لكن بقيت أعماله محصورة بين علماء يشتغلون على مواضيع متماثلة، ويعرف بعضهم بعضاً، وبقي هو خارج الجماعة العلمية السوسيولوجية الفرنسية بسبب احتكار المدرسة الدوركايمية للجامعة، لكن أيضاً بسبب غياب «استراتيجية بحثية»

عند لاتور. ولعلّ هذا ما يُفسّر مروره بمرحلة طويلة من التجاهل، قبل أن يُنجز تحقيقه الأخير حول الحداثيين.

قد يكون لاتور انتبه إلى ضرورة وضع استراتيجيا للفت الانتباه نحو مشروعه، فجهّز بحثه بتقنيات مُبتكرة، وانطلق من مسألة محدّدة، لأنّه يعلم أنّ مُعالجة هذه المسألة تفتح الطريق أمام مناقشة مسائل أخرى، فاختار أن يُركّز انتباه القارئ (المُشارك في التحقيق) على موضوعة «تخليط القيم بالوقائع» في إجابة الباحث، والتي أثارت استياء لاتور واستغرابه، حتى يضمن تجنيد أكبر عدد ممكن من القرّاء بتشريكهم في وضع الأسئلة وإثرائها. وهكذا، يستطيع تطوير التحقيق باتجاهات مُتعدّدة. وينعكس اختيار هذه الاستراتيجية في طبيعة التجهيز التقني المُستخدم، ويتبدى تأثير الاستراتيجية أيضاً في طريقة استجابات مجموعات القرّاء لاكتشاف أنفسهم. فهل نجح لاتور في الربط بين استراتيجية البحث والجهاز المُبتَكَر؟

انطلق الكاتب من نادرة حول سؤال مُستفزّ وُجّه إلى باحث في علم الأرصاد الجوية. السؤال طُرِح من طرف مجموعة صناعيين فرنسيين، هدفهم التشكيك في أهمية دور البشر في التغيرات المناخية والاحتباس الحراري: «لماذا علينا أن نعتقد في نتائج أبحاثك؟». للإجابة عن السؤال، قفز الباحث على مبدأ اليقين العلمي (Certitude) ليعتمد خطاب الثقة (Confiance): «إن كنّا لا نثق في المؤسّسة العلمية، فهذا خطير» (ص ١٥). شكّلت إجابة الباحث المدخل الأفضل لبناء مشروعية التحقيق في تجارب الحداثيين. إنّ استخدام باحث فرنسي من الـ «كوليج دي فرانس» كلمة «ثقة» في موضوع سجالي يعود بالنظر إلى مجال العلوم الصحيحة واستعمال أحد الفاعلين الاقتصاديين المهتمين بمسألة البيئة والتنمية المستدامة، مُفردة «اعتقاد» (Croyance) للتعبير عن تفاعله مع النتائج العلمية التي توصّلت إليها مراصد المناخ، يُعتبر أمراً مفاجئاً ومثيراً للاستغراب، بحسب لاتور. أليست الموضوعية العلمية تستدعي إجابة تستند إلى وقائع مكمّمة ونتائج محسوبة بدقّة؟

إنّ استعمال مصطلحات من قبيل «ثقة» و«مؤسّسة» و«اعتقاد» عادة ما تُزعج عقلانية الحداثيين وتُنتج ردود فعل غاضبة من طرف الذين تعوّدوا مُحاربتها وازدراءها (ص١٩). كيف يُمكن تفسير هذا التناقض، صلب «المؤسّسة العلمية»؟ ويُضيف لاتور «نشعر أنّ السؤال حول العلوم معقّد، ويجب التحقيق بأشكال جديدة حول آلة صناعة الموضوعية» (ص ١٨)، قبل أن يخلص إلى القول «هذه الحادثة تجعلنا نفهم الحاجة الملحّة للتحقيق حول المكانة التي يجب أن نعطيها للكلمة المفتاحية «مؤسّسة» وبشكل خاص «المؤسّسة العلمية» (...) وإن ألْتزم بالقيام بهذا فلأننا عاينا، في إجابة الأستاذ، تناقضاً وتوتراً بين القيمة التي أراد الدفاع عنها ـ الموضوعية ـ والتقرير الذي استعمله لتعريفها» (ص١٩).

هكذا، استخدم لاتور المجادلة التي ولّدتها هذه النادرة لكي يُعبّر عمّا يرى أنّه السهم الذي خلط «القيم بالوقائع». ويتساءل «لماذا لا تصمد العديد من القيم أمام الانتقادات الموجّهة لها؟» ليجيب: «بسبب ظاهرة أعمل على توثيقها منذ بدأت التحقيق الميداني في أفريقيا، بداية

السبعينيات، والتي نُطلق عليها تسمية «غلق قوس الحداثة»... القادم هو الاختيار بين الحداثة أو البيئة» (ص ٢٠).

إذاً، حين ينتقل لاتور من معاينة النادرة إلى تحليلها، يُبرز أهمية بحثه وأهدافه. ولا يترك أي مجال للشكّ في دينامية بحثية تبدو فيها الوقائع كأنها المحرّك الوحيد لإنجاز هذا العمل. «بما أنّ الهدف هو القيام بجرد لعالم الحداثيين وتجاربهم حتى نفهم من نحن وماذا ورثنا...» (ص ٢٤).

ويشكّل الجهاز الذي وضعه لاتور مثالاً للمقاربة السوسيو ـ بنائية، حيث يقول: «أنا متأكّد أنّي أخطأت في محاولاتي السابقة لوضع بدائل لقيم الحداثة... والخطأ بنّاء لأنّ الدبلوماسي لا يكون على صواب وهو يتحرّك بمفرده...» لذا يحتوي البحث على هدف مُزدوج. فهو ـ **أولاً** ـ يُقدّم تقريراً حول الحداثيين، وهو يمثّل ـ **ثانياً** ـ وبشكل من الأشكال، معاهدة «بداية سلام». فهل يمكن أن تُستعمل الإنثروبولوجيا المقارنة كمقدّمة للتفاوض الكوني حول مُستقبل القيم الإنسانية التي أنتجتها الحداثة، وكانت في الوقت ذاته سبباً في انهيارها؟ يرى لاتور أنّ التفكير الهادئ هو ما يدفع إليه هذا التحقيق بتسليط الضوء على الكثير من المواضيع غير المُتوقّعة، وباستعمال مقارنات بين ثنائيات تتنازع قيمها، الدين والعلم مثلاً، أو السياسة والقانون... فإلى أين سيأخذنا هذا التحقيق؟

## خاتمة

على الرغم من أن أغلب الخيارات النظرية والمنهجية والميتافيزيقية التي اعتمدها لاتور قد جرى انتقادها بشدّة من قبل (دوبوا، ٢٠٠٨)، إلّا أنّ عمله الأخير لاقى ترحيباً داخل الوسط الثقافي والإعلامي الفرنسي، وذهب بعضهم إلى اعتباره «أحد الوجوه الثقافية البارزة في عصرنا» (Maniglier, 2012). وأصبح اسمه يتصدّر منذ سنة ٢٠١٢ الصحف والمجلّات المختصّة. ومع ذلك، يبدو أنّ الوقت ما زال مبكّراً اليوم لمعرفة انعكاسات المدوّنة اللاتورية على المنازعات القديمة داخل مدارس علم الاجتماع الفرانكفوني بعامة.

أما على مستوى ممارسة البحث السوسيولوجي المغاربي (المغرب والجزائر وتونس وموريتانيا)، فإنّ التفاعلات لا تزال مُتباعدة. أغلب روّاد علم الاجتماع في المغرب العربي نهلوا من الثقافة الغربية بروافدها الفرنسي، وقد تلقى معظمهم دراساتهم العليا في فرنسا، أو على أيدي من تتلمذ فيها. وبهذا المعنى، بقوا مُتأثّرين بالسائد في الخطاب المعرفي الفرنسي. ويرى الكثير من الأنثروبولوجيين، أنّ «الخطاب الأنثروبولوجي الذي تمّ تأسيسه في المرحلة الاستعمارية ما يزال هو الخطاب السائد بعد الاستقلال، وما يزال يعتمد الأسس التي نهضت عليها الأنثروبولوجيا في الماضي» (Pels, 1997: 163-183). غير أن مآلات هذا التخصّص اليوم، أصبحت محلّ نقاشات حادّة. على أنه قد يكون من الصعب والمبكر الآن الحديث عن إمكانية تحرير السوسيولوجيا من المقاربة الشمولية والنسقية للدوركايمية أو للنظرية الماركسية التي هيمنت خلال السبعينيات من القرن الماضي، ومن تأثير سيميولوجيا رولان بارت وجان بودريار، وإن كان الإنتاج الأنثربولوجي في المغرب

الأقصى نفسه متحاوراً مع الأنثروبولوجيا الأنغلوسكسونية، وكانت بعض الأعمال قريبة من الأنثروبولوجيا الثقافية.

في هذا السياق، لا يمكن لعلماء الاجتماع المغاربة، الذين وجدوا أنفسهم في مواجهة ظواهر ثقافية تتجاوز التخصّصات التقليدية ووجّهوا اهتمامهم نحو أنثروبولوجيا ما بعد استعمارية، أن يبقوا خارج السجال والحوار والتموقع النظري تجاه المدوّنة اللاتورية.

## المراجع


دوبوا، ميشال (٢٠٠٨). **مدخل إلى علم اجتماع العلوم**، ترجمة سعود المولى. بيروت: المنظمة العربية للترجمة.

Aeschimann, Eric (2010). «Le Climat mis au vote.» *Libération*: 20 décembre, <http://www.liberation.fr/terre/2010/12/20/le-climat-mis-au-vote_701827>.

Descamps, Fabrice (2013). «Bruno Latour et la postmodernité.» <https://www.contrepoints.org/2013/01/06/110440-bruno-latour-et-la-postmodernite>.

Latour, Bruno (1982). *La Science telle qu'elle se fait, une anthologie de la sociologie des sciences de langue anglaise.* Préface avec Michel Callon. Paris: Editions Pandore.

Latour, Bruno (1987). *Science in Action: How to Follow Scientists and Engineers through Society*. Cambridgr, MA: Harvard University Press.

Latour, Bruno (1991). *Nous n'avons jamais été modernes: Essai d'anthropologie symétrique*. Paris: La Découverte.

Latour, Bruno (1999), *Politiques de la nature*. Paris: La Découverte.

Latour, Bruno (2004). «Le Rappel de la modernité - approches anthropologiques.» *Ethnographiques.org*, no. 6, novembre [en ligne]. <http://www.ethnographiques.org/2004/Latour> (consulté le 30/4/2017)

Latour, Bruno (2004). *La Fabrique du droit, une ethnographie du Conseil d'État.* Paris: Éd. La Découverte (Coll. Sciences humaines et sociales).

Latour, Bruno (2006). *Changer la société, refaire la sociologie*. Paris: La Découverte.

Latour, Bruno (2015). *Face à Gaïa. Huit conférences sur le Nouveau Régime Climatique*. Paris: Les Empêcheurs de penser en rond, La Découverte.

Latour, Bruno and Steve Woolgar (1979). *Laboratory Life: The Social Construction of Scientific Facts.* London: Sage.

Latour, Bruno and Steve Woolgar (1988). *La Vie de laboratoire: La Production des faits scientifiques*. Paris: La Découverte.

Latour, Bruno. (2002). *Jubiler ou les tourments de la parole religieuse*. Paris: Les Empêcheurs de penser en rond.

Madeleine Akrich, Michel Callon et Bruno Latour (éd.) (2006). *Sociologie de la traduction: Textes fondateurs*. Paris: Mines ParisTech, les Presses, «Sciences sociales». Textes rassemblés par le Centre de sociologie de l'innovation, laboratoire de sociologie de Mines Paris Tech.

Maniglier, Patrice (2012). «Qui a peur de Bruno Latour?.» *Le Monde*: 19/9.

Pels, Peter (1997). «The Anthropology of Colonialism: Culture, History and the Emergence of Western Governmentality.» *Annual Review of Anthropology*: vol. 26.

Serre, Michel (1974). *Hermès III, la traduction*. Paris: Éditions de Minuit.

Zarachowicz, Weronika (2015). «Bruno Latour, philosophe: «L'écologie, c'est le $CO_2$, mais aussi le capitalisme, la modernité...». » *Idées* (30 novembre), <http://www.telerama.fr/idees/cop21-bruno-latour-philosophe-l-ecologie-c-est-le-co2-mais-aussi-le-capitalisme-la-modernite,134234.php>.